العبادة

(بقية)

للدكتور مصطفى كمال وصفى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

قلنا أن العبادة هى تسخير الانسان نفسه عن رضا وطواعية لهدف من الاهداف ، بحيث يصير مملوكا لهذا الهدف ، مأسورا به بروحه ، مدفوعا بمحض رغبته للقيام عليه . وبذلك تنشأ هذه العلاقة بين المعبود والعابد وهى التى يقدم العابد فيها خلاصة نفسه واخلاصة ـ وهو أثمن ما يملكه الشخص ـ ليحرقه قربانا بين يدى معبوده .

وهذه العلاقة يكيفها العابد . لأنها تعتمد على فكرته فى هذا المعبود وعلى قوة اندفاعه فى مجال عبادته .

ولما كانت القلوب مختلفة فى صفاتها وفى قدرتها على الحب والمعرفة ، فلذلك اختلفت فكرة كل شخص عن الله سبحانه وتعالى ، واختلفت درجته فى هذه العبادة .

فكل قلب يحتوى من الآمال والأهداف ما لا يحويها غيره ، وان اشتركت القلوب فى بعض الأهداف ، فانها تختلف فى تقديرها والانكباب عليها . ولذلك اختلف الناس فى تعلقهم بمعبودهم باختلاف أهدافهم وهمتهم .

ومن الجائز أن يكون تباين القلوب واختلافها ، بقدر ما نلاحظه فى اختلاف الناس فى شخصياتهم وأخلاقهم وأشكالهم والوانهم . حتى ليتعذر أن تجد اثنين متشابهين فى كل شىء ، أو تجد بصمة أصبع كغيرها . وكذلك قد يكون اختلاف القلوب واختلاف الدرجات عند الله .

واذا كانت القلوب مختلفة اذن فى طابعها ، فان فكرة كل انسان عن الله تختلف عن فكرة غيره عنه . فاذا كان الله فى ذاته فردا واحدا ، الا أنه متعدد فى قلوب الناس بتعدد فكرتهم عنه . وهذا من باب هيمنته سبحانه وتعالى وأنه لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار .

وكل انسان يعبد ما فى قلبه ، وان سماه الله وهو دونه . وتفيد نفسه

وروحه من تعلقه بما أحتواه قلبه . وتنعكس فائدة هذه العبادة على النفس والفكر فترقى بها أو نفسها . فان كان مافى القلب هو الله حقا وصدقا فقد وسع ذلك القلب جلال الله وعظمته مصداقا لقول الرسول على لسان رب العزة «**لم تسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن**» وصار الانسان بهذه العبادة ربانيا عظيم الهمة . وان كان ما فى القلب ما دون الله أو ما سواه ، لم يرتفع الانسان بذلك الا بقدر همة معبوده .

وان الله لا يفيد من عبادتنا شيئا . ولكننا نحن الذين نفيد من عقيدتنا وصدق اعتقادنا واقبالنا على الله . فأنت اذا وقفت فى الصلاة ساهيا ، كنت كمن يقرأ فى كتاب غافلا ، فتقلب الصفحات تلو الصفحات وتقضى طوال الساعات ثم لا تجنى من ذلك غير الصداع والضياع . فقبله الانسان من قلبه . وقبول صلاته من حاله . وافادته من عبادته بيقينه وايمانه . ولا يضار الله شيئا اذا لم نقبل عليه .

والسبب فى أن عبادة الله هى وحدها القادرة على اسعاد الانسان وعلى الرقى به وعلى أن تملأ فراغ قلبه وتسد حاجته الى معبود يكتفى به ويسعد به ، هو أن الله حائز لصفات المعبود الكافى ، وهى :

أولا ـ الدوام

ثانيا ـ القدرة المطلقة المتناهية

ثالثا ـ الرفعة .

فاذا كانت فكرة الانسان عن الله فاقدة لأحد هذه الصفات الأساسية ، أو كان يعبد شيئا آخر ، فانه يشقى بعبادته وتنقلب حربا عليه ولا يسعد بها ، ولا تكون كافية للأخذ بيده واخراجه من الشقاوة والتعاسة .

فبالنسبة للدوام ، وهى الصفة الأولى ، تتبين أهمية هذه الصفة من أن العبادة يجب أن تظل مسيطرة على القلب لا يفرغ منها حتى يظل المعبود مؤنسا لعبده ، فلا يتخلى عنه ويتركه فى فراغ يتعذر عليه ملؤه ، ويظل بعده حائرا فى الظلام بلا هدف .

فالذى يعبد معبودا زائلا لا يسعد بعبادته . اذ أنه اذا زال معبوده انعدم هدفه وغرضه وصار ضالا بدونه . وصار فى حياته نهبا للضيق والانقباض والقلق . بل ان المعبود الزائل كثيرا ما ينقلب على عابده ضدا ويصير عليه حربا .

ومثال ذلك امرأة تعبد جمالها . وكم من الجميلات يعبدن جمالهن فتضحى بكل غال ومرتخص فى سبيل زينتها وابراز محاسنها ومفاتنها ، وفى سبيل جذب العباد الذين يشاركونها أعجابها لتتخذ من عذابهم قربانا

يرضى به الاهها الكاذب . فمثل هذه المتفانية فى عبادة جمالها ، ينقلب معبودها حربا عليها اذا ما شاخت وذوى جمالها . فعند ذلك يتخلى عنها ربها الكاذب ، وتنظر الى ما قدمت من عمل فاذا هو حابط لا ينفع وتتقلب حسرات على ما أنفقت فيه . بل تشعر بالمرارة والألم اذ تجد نفسها فى زوايا الاهمال وهدفا للسخرية والهزء ممن اعتلين عرش الجمال بعدها ومن المحيطين بهن من دونها . فيكون عطفهم عليها أشق عليها من سخريتهم بها . وتسلم روحها الى أشق أنواع العذاب المهين المؤلم .

ومثلها أيضا العابد لجاهه ومنصبه . فهو يجاهد فى سبيل بلوغ قصده ويضحى ويعاند ويخاصم ويتملق ويتذلل فى هذا السبيل ، حتى يصله فيكون حفظه عبء عليه ، واذا زال من دونه وأبصر نفسه فى زوايا الاهمال بعد هذا الجهاد الفاشل ذاق المرارة والأسى بما قدمت يداه وبما عبد من دون الله .

وبالنسبة للصفة الثانية ، وهى صفة القدرة ، فاذا لم يكن المعبود قادرا على أن يستجيب لمختلف حاجات العبد ، قادرا على أن يصمد لكل مطالبه ، وكان يشد من أزره فى الملمات وينصره فى المعضلات .

فان عبادته لا ترضى نفس العابد ، لأنه لا يرفع عنه مسئولياته التى يستشعرها فى هذه الحياة ، ولا يمهد له سبل الاعتماد والاتكال عليه بل يظل فى جميع الاحوال شاعرا فى نفسه بأن عبادة هذا الاله عالة عليه وفضلا منه ، فلا يبعد ان يأتى اليوم الذى يتضح له زيفها ويتخلى عنها لعدم لزومها له . ولذلك تنهار أسس نفسه وتميد أرض سعادته .

وهذا هو بالضبط حال من يظن نفسه انه يعبد الها ولكنه لا يعتمد عليه كل الاعتماد أو يظن به الظنون ، ولا يظل على عقيدته الا من باب التقليد والاستمرار . فيظل فى حياته عابدا لله بلسانه فحسب اذ أنه لا يسارع الى الله عند الضيق يعتمد عليه ، بل يسارع الى غيره ملتمسا النصير وحاسبا أن عنده الكفاية . فيضل بين ضعف عقيدته ومغبة اشراكه

ومثله أيضا من يعبد من دون الله ما لا يقدر على سد جميع مطالبه . كالعابد للمال .

فالمال لا يحقق لنا جميع ما نطلب . لانه قاصر عاجز . فهو لا يشترى لنا احترام الناس ولا الصحة ولا المحبة، فيظل عابد المال فى قهر وحزن اذ لا يقدر معبوده ان يسد له هذه المطالب .

وكذلك المعتمد على غير الله كالمعتمد على نفوذ صاحب سلطان فهو لا يأمن تغير أهوائه ولا أن يصير حربا عليه وضدا له فى أى وقت . وكذلك سائر كل من اعتز بغير الله ، كان ذله على يديه .

بل ان مثل هذا العابد يقوم خادما على عبادة من تعبد بقصد الفائدة منه لأن هذا المعبود عاجز وفى حاجة الى من يعتمد عليه ، فلا يتأتى ان يكون هو ملجأ الانسان وسنده . فصاحب المال سرعان ما يجد نفسه حارسا له خادما له قائما عليه مخاصما الناس فى سبيله ، فينقلب من الاكتفاء به الى زيادة الشغل والهم بسببه . وكذلك المعتمد على صاحب السلطة سرعان ما يجد نفسه فى دوامه من الجرى وراء مطالبه وأسباب تحقيق رغباته فيزيد شقاء بتتبعه له .

وأخيرا فيجب أن يكون المعبود عالى الرفعة والسمو حتى تكون فيه طاقة كافية لجذب عابده ورفعه الى أعلى المستوى .

وبقدر حسن ادراك العابد لرفعه صفات المعبود وسموه يكون قوة جذبه وارتقائه بسببه .

وذلك كله لا يتوفر الا لله العلى القدير الدائم الصمد الفرد الاحد الذى لا أول له ولا آخر ، الذى يأنس به الانسان فى حياته وبعد مماته ولا يرد خائبا وهو أهل للاعتماد عليه وهو المثل الأعلى الجامع لكل الكمالات .

ولذلك فلا شك فى أن عبادة الله سبحانه أرقى العبادات . والعابد لله أرقى البشر طرا عقلا وادراكا ، فالعابد للعلم وحده دون العابد لله الجامع لكل المثل بما فيها العلم . والماجوسى العابد للنار — لما لمس فيها من المعانى أدنى عقلا من العابد لله خالق النار والماء الذى يقهر النار والهواء والذى يحرك الماء والنار فهو فوق كل ذلك . فاعبدوه ذلك صراط مستقيم .

الرفاعى
مصطفى كمال وصيفى

* * *